الجولة الرابعة

وهي

في ميدان من ميادين المعرفة

يقول الله عز وجل : « **وعلم آدم الأسماء كلها** »(١) لقد كانت نقطة البداية في تعليم آدم هي تعريفه على الأسماء ومسمياتها وهي نقطة البداية في كل معرفة فالانسان يولد لا يعرف شيئا . قال تعالى : « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** »(٢) . ويقول عليه الصلاة والسلام : « يولد الانسان على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . انه من خلال الحواس ومن خلال الشعور ومن خلال البيئة تبدأ رحلة المعرفة عند الانسان وتبدأ المعرفة الزائدة على الشعور بالتمييز بين الأشياء وتستكمل معرفة الشيء بمعرفة اسمه وكلما زادت معرفتنا بأسماء الأشياء وحقائقها من خلال الاسم المجرد أو التعريف يكون علمنا في ازدياد . وكلما كانت المعرفة مطابقة للواقع كانت المعرفة صحيحة وسليمة ، والمعارف كثيرة ، وكلما كثرت كان ذلك أدل على الكمال ، ولكن نوعا من المعرفة في حق انسان هو أولى منه في حق انسان آخر ، فمثلا صاحب الاختصاص قد يكون معيبا في حقه ألا يكون محيطا باختصاصه فالتبحر في اختصاصه أجود من محاولة التعرف على ما لا ينفعه ، والبشرية بمجموعها كلما زادت معرفتها فذلك أكثر نفعا لهذه البشرية . ولكن ما هو الأنفع في حق انسان ما من أنواع المعارف وما الذي يعطيه الأولوية ؟ ان هذا يختلف من انسان الى آخر ومن ثم فان الكلام عن المعارف ليس له نهاية ، والكلام عما يحتاجه كل انسان على

---

(١) البقرة : ٣١ .

(٢) النحل : ٧٨ .

حدة شيء غير مستطاع للانسان ولذلك فان البحث عن القاعدة التى يستفيد منها كل الناس هو الذى ينبغى أن يبحث عنه الراغبون فى الافادة وهذه الجولة هذه حدودها .

* * *

لكل لغة قواميسها التى تذكر مفرداتها وتحدد معانى هذه المفردات ومن ذلك اللغة العربية ومن قبل قلنا ان تحديد المعنى الدقيق للكلمة ومعرفة مضمونها . ومعرفة أسماء الأشياء شيء مهم جدا . والتعبير عن المسميات اقتضى صياغة جمل تتألف من مفردات . ويطرأ عادة على المفرد طوارىء بحسب محله من الجملة ان على آخره أو على بنيته ومن ثم نشأ علم النحو والصرف . علم النحو ليعرفنا على كيفية النطق الصحيح لآخر الكلمة بحسب موقعها من الجملة . وعلم الصرف ليعرفنا على ما يطرأ على بنية الكلمة .

وهكذا وجدت القواميس وعلم النحو والصرف فى اللغة العربية .

* * *

وفى اللغة العربية يؤدى الحرف فى العادة معنى « اسم أو فعل » وكثير من المعانى تؤدى بكلمات اصطلح عليها . فأداة النداء « يا » تؤدى معنى « أدعو » واسم الاشارة « هذا » ينوب عن استعمال كلمتى « المشار اليه » فالبحث عن معنى الحرف ، والبحث عن معنى الاسم المعبر به عن معنى قد يتعرض له النحويون وقد لا يتعرضون . فحرف الجر الباء له عدة معان وحرف الجر « من » له عدة معان ، ومن ثم كان لابد من علم مكمل لعلمى الصرف والنحو هو علم المعانى الذى هو أحد علوم البلاغة الثلاثة :

ان الأصل فى الاستفهام اللغة أنه يتضمن سؤالا يحتاج الى جواب والأصل فى النداء أنه نداء انسان ليسمع فيستجيب . والنحو فى الأصل يقول لنا عن كلمة أنها حرف نداء ، أو اسم استفهام أو حرف استفهام . فأى علم هو الذى يبين لنا أن الاستفهام يراد به غير السؤال كأن يراد به أمرا أو نهيا أو انكارا أو تعجبا وأن النداء قد يراد به غير ما وضع له وهو التفجع أو التحسر أو اظهار العلو أو الدنو وأن الاخبار قد يراد به الأمر الى غير ذلك مما اعتاد الناس أن يخرجوا به صيغة عن أصل ما وضعت له لاستعمالات أخرى .

ان هذا العلم هو علم المعانى الذى ذكرناه وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة .

* * *

والانسان قد يعبر عن معنى بكلمة وضعت فى الأصل لهذا المعنى ككلمة كريم للكريم ولكنه قد يعبر عن المعنى عن طريق مجاز أو استعارة أو تشبيه أو كناية والمجاز أنواع كثيرة ، والكناية أكثر من نوع والاستعارة أنواع . والتشبيه أنواع فما هو العلم الذى يعرفنا على أساليب التعبير عن المعنى ؟ انه علم البيان وهو أحد علوم البلاغة الثلاث .

ثم هناك العلم الثالث من علوم البلاغة ، وهو العلم الذى يعرفنا أو يدلنا على ما يزداد به الحسن فى الكلام وكيف تجعل كلمتك أكثر رونقا وأبهى جمالا . ان العلم الذى يفتح لنا آفاق ذلك هو علم البديع ، وهو ثالث علوم البلاغة .

والانسان يعبر عن المعانى شعرا أو نثرا ، ومن ثم وجد علم العروض وعلم القافية . وفن الخطابة والمحاضرة والكتابة .

ومن استقراءات عامة للغة ما نتعرف على كثير من القواعد والضوابط والأسس . ومن هنا ينشأ علم فقـــه اللغة ، وذلك كله يقتضى أن نعرف كيف نرسم اللغة وكيف نكتبهـــا ؟ وينشأ عن ذلك علم الخط وعلم الاملاء .

* * *

مما ذكرناه تدرك أنك لكى تفهم نصا من النصوص قد تحتاج الى أن تعرف الاملاء ورسم الخط وعلم الصرف وعلم النحو وعلوم البلاغة الثلاثة وحتى فقه اللغة .

قد يتساءل متسائل وهل احتاج العربى القديم لكل هذا ؟ نقول : لا ؛ لأن العربى القديم كان من خلال الاستعمال اليومى يدرك المراد بلا وسائل ؛ فمثله كمثل مخترع آلة فانه لا يحتاج الى كثير عناء لاستعمالها واصلاحها وفكها وتركيبها . ولكن كم يحتاج غير مخترع السيارة الى جهد ليحسن فكها وتركيبها واصلاحها واستعمالها ثم ان العربى القديم نفسه لو أراد أن يدرس اللغة العربية وأن يعلمها فانه يحتاج الى تقسيم العلوم التى يحتاجها ذلك وايجاد مصطلحات من أجل ذلك ؛ فما حدث

تاريخيا كان لابد منه ؛ ولذلك فان كل العلوم التى احتاجتها اللغة العربية نجدها موجودة عند كل أمة فذلك شىء لابد منه ولا ينكره أو يستبعد الحاجة اليل الا جاهل •

ضع هذا فى ذهنك وامش قليلا فى هذه الجولة فى ميدان المعرفة •

* * *

قلنا انه من خلال الحواس والمشاعر الوجدانية • ومن خلال البيئة تنشأ معارف ولا معارف الا بعقل • والعقل من خلال المعلوم يعرف المجهول بواسطة الاستنتاج • ومن خلال الاستقراء يعرف قواعد ومن خلال التركيب والتحليل وغير ذلك تنشأ علوم جديدة • ولو افترضنا أن رحلة المعرفة من بدايتها الى نهايتها كانت صحيحة وعلى مسار صحيح بأن كانت الحواس تعطى معلومات صحيحة ، والوجدان يعطى مشاعر صحيحة ، والاستقراء صحيح ، والاستنتاج صحيح • والعقل غير مجذوب بجواذب وأحكامه صحيحة • انه فى مثل هذه الحالة لابد أن تنشأ علوم صحيحة • ولكن الواقع البشرى ليس كذلك ، ومن ثم فقد حاولت البشرية أن تبحث عن ضوابط للوصول الى المعرفة الصحيحة • وكان كجزء من محاولتها أن نشأ علم المنطق وكجزء من محاولاتها للاجابة على كل سؤال أن نشأ علم الفلسفة واختلط علم المنطق بعلم الفلسفة ، وأدخل القدماء فى علم الفلسفة علوما متعددة • ثم بدأت عمليات انفصال كأثر عن تقسيم العلوم ، ووجد لكل علم طرق تحقيقه ومن ثم حاول المحدثون أن يوجدوا علم منطق مناسب للعصر والمهم أن هناك شعورا من البشر فى كل مراحل التاريخ بالاحتياج لعلم يضبط الاستنتاج أو الاستقراء ويدلل على صحة النتائج ويعطى لكل قضية محلها فى عالم الحقيقة مثل هذا العلم اصطلح على تسميته بعلم المنطق ، ولئن أخطأ الناس أو أحسنوا ، أو لم يصلوا الى نتيجة صحيحة ، أو اعتمدوا ما ليس صحيحا فان أصل الفكرة تمثل احتياجا من احتياجات البشرية لأن الاستنتاج يحتاج الى ضوابط والاستقراء يحتاج الى ضوابط والاستقراء يحتاج الى معالم ، ومن خلال الاستقراء والاستنتاج قامت الحضارات ، فكل العلوم الحديثة ، وكل قفزات المدنية الحديثة كانت أثرا عن استقراء أو استنتاج ولابد لذلك كله من قواعد وضوابط ولابد من علم يسجل ذلك •

ان علم الرياضيات كله هو أثر الاستنتاج ترى هل كان بالامكان أن

يصل انسان الى القمر بلا علم رياضيات ؟ وان كل دواء فى العالم هو أثر عن استقراء • ترى هل كان بالامكان أن يكون علم الأدوية الحالى على هذه الشاكلة بلا استقراء • ولكن أى استنتاج يوصل الى حقيقة ؟ وأى استقراء يوصل الى حقيقة ؟ ان مجرد معرفتنا بهذه القضية يؤكد لنا احتياجات البشرية لعلم ضابط وقد اصطلحت البشرية على أن تسمى العلم الباحث عن مثل هذه الشئون علم المنطق ، ومهما حمل الحاملون عليه فانهم لم يحملوا على كل شىء فيه ومهما دافع المدافعون عنه فانهم لا يستطيعون أن يقولوا : ان كل ما كتب فيه صحيح وان كل ما ورد فى كتبه هو الذى يحتاجه الانسان فضلا عن أن يحتاجه كل انسان ••

انه فى كثير من الأحيان استطاعت علوم أن تأخذ من علم المنطق ما يحتاجه دارس ذلك العلم منه ، فدمجته فيها كما حدث مثلا فى علم الأصول اذ استطاع علماء الأصول من المسلمين أن يقدموا فى كتبهم الكثير مما يحتاجه الانسان مما جرت العادة أن يكتب فى كتب المنطق أو كما فعل علماء الأدب ، أو علماء العقائد الاسلامية اذ أدخل كثير من هؤلاء ما يحتاجه الانسان من هذا العلم الى كتبهم ومن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها •

ولسنا فى معرض الثناء على علم المنطق أو محاربته ولا فى معرض أبحاثه واستطرادات أهله ولكنا فى معرض أن نقول ان الانسان بحاجة الى معالم ضابطة للاستنتاج العقلى الصحيح والاستقراء الكونى السليم من أجل ألا يرفض حقيقة عقلية أو حقيقة كونية ، ومن أجل ألا يقدم لنفسه أو للآخرين الغلط العقلى على أنه حقيقة عقلية أو الوهم على أنه حقيقة كونية •

* * *

والله الذى خلق الانسان وأعطاه العقل وخلق الكون وجعله مسخرا للانسان : « **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** »(١) • ان الله الذى خلق الكون والانسان والعقل أنزل وحيا خلال العصور وكان الوحى الأخير الذى طالب به البشرية كلها هو الوحى الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم والمتمثل بالكتاب والسنة ، والذى هو تكليف الله للبشرية كلها • ومن

(١) لقمان : ٢٠ •

البدهيات أن لا يتناقض هذا الوحى مع استنتاج عقلى صحيح ، أو استقراء كونى صحيح ، هذه مسلمة من المسلمات وبديهية من البديهيات ولذلك فان الانسان ينطلق فى عملية التعرف على هذا الوحى وهو مسلم بالحكم العقلى ومسلم بالحكم العادى .

واذن فهو ينطلق نحو الفهم غير معطل لقانون عقلى ولا قانون كونى وغير رافض لحقيقة عقلية أو كونية بل هو يعتمد كل الحقائق العقلية والكونية فى عملية الفهم للوحى المتمثل بالكتاب والسنة لذلك أكثر الله من ذكـر العقـل والفكـر فى القرآن ، وأنكر على من لا يعقـل : « **أفلا تعقلون** »(١) . وجعل معرفة آيات الله فى الكون علامة على العقل : « **ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** »(٢) .

* * *

واذ كان الوحى الذى كلفت به البشرية كلها قد أنزل بلغة العرب واذ كان الحكم العقلى والحكم العادى معتمدين عقلا ونقلا فان من أسس الفهم للوحى اتقان علوم اللغة العربية ومعرفة الحقائق العقلية والكونية .

فضع هذا فى ذهنك وامش قليلا معنا فى هذه الجولة .

* * *

الكتاب والسنة كلاهما وحى فالله عز وجل قال : « **كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم** »(٣) . والله عز وجل قال عن رسوله عليه الصلاة والسلام : « **وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى** »(٤) . ويقول عليه الصلاة والسلام : « ألا وانى أوتيت الكتاب ومثله معه » . وفى رواية « ومثليه معه » والسنة بالنسبة للقرآن بمثابة البيان له قال تعـالى : « **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون** »(٥) فالسنة بالنسبة للقرآن سواء كانت قولية أو فعلية أو تقريرية أو حالية كالشارحة له أو المؤكدة أو المكملة .

* * *

---

(١) البقرة : ٧٦ .
(٢) الرعد : ٤ .
(٣) ابراهيم : ١ .
(٤) النجـم : ٣ . ٤ .
(٥) النحل : ٤٤ .

والقرآن كله متواتر ولم يخالطه غيره والسنة بحسب الرواية منها المتواتر لفظا ومعنى ومنها المتواتر معنى لا لفظا ومنها الصحيح ومنها الحسن ومنها الضعيف وقد حاول أصناف الوضاعين أن يدخلوا عليها ما ليس منها • ولكن علماء الحديث كانوا لهم بالمرصاد •

* * *

ومراعاة لوضع العرب فى تعدد لهجاتهم ولغاتهم فقد أنزل القرآن على سبعة أحرف ثم جمع عثمان الناس على رسم واحد للمصحف فقرأ جميع الناس على هذا الرسم محتفظين ببقايا الأحرف مما لا يعارض رسم عثمان رضى الله عنه فبقى لنا من الأحرف السبعة بقيتها المتمثلة بالقراءات الصحيحة والمتواترة وبقيت روايات تمثل بقايا العلم بالأحرف السبعة ثم ان هناك من القرآن ما نسخ لفظه وبقيت الأمة مطالبة بمعناه •

ومن ثم فان البشرية مطالبة بالنسبة للوحى بواجب :

هو حصر ما هو وحى وحفظه واثباته وقد فعلت الأمة الاسلامية ذلك فحفظت بالنسبة للقرآن حتى الهمسة اذا تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن بها وبذلت هذه الأمة جهودا مضنية لحفظ السنة واثباتها وتمييزها عن غيرها وتصفيتها مما خالطها ، واعطاء كل نص منها صفته فى مقدار الثبوت •

ثم ان عندنا بالنسبة للوحى واجبين آخرين :

الواجب الأول : فهم النصوص فهما صحيحا •

الواجب الثانى : تنفيذ ما تطالب به البشرية أو مجموعة منها أو فرد منها من مجموع هذا الوحى فى لحظة من اللحظات وفى كل اللحظات فى عصر من العصور ، وفى كل العصور فى أوضاع عادية وفى أوضاع استثنائية ، وهذا اقتضى وجود ما يسمى بالحكم الشرعى والأصول التى ينبثق عنها الحكم الشرعى •

ضع هذا فى ذهنك وامش معنا قليلا فى هذه الجولة •

* * *

مما ابتليت به السنة ضعف ضبط الرواة ، وسوء نية بعضهم • وفى عملية تصفية السنة قام علماء المسلمين بعمليتين • عملية تقييم

للرواة ، وعملية امتحان للمروى • فاذا ما خالف الضعيف الثقة فقد اعتبروا الرواية منكرة • واذا ما خالف الثقة ثقات ، أو من هو أوثق منه فذلك الشاذ ، واذن فمن ضرورات فهم الوحى واعتماده الاستشراف الشامل لمجموع النصوص •

* * *

ثم ان السنة اذا رواها فرد فان احتمال التوهم فى حقه أو احتمال الخطأ أو احتمال الرواية بالمعنى وعدم اصابة المعنى : كل ذلك موجود ، واذن ففى عملية مسح كاملة للنصوص لابد من التفريق بين النص القطعى الثبوت ، والنص الظنى الثبوت • حتى ولو كان صحيحا ما دام رواية أفراد ، وسيترتب على هذا حتما أحكامه فى قوة الالزام لأن شيئا طالب به الشارع فى الكتاب ، وفى السنة المتواترة له وزنه عند الشارع أكثر من شىء لم يروه عن الشارع الا واحد ، وروايته عنه تحتمل أن يكون الخطأ قد تسرب اليها •

ومن عملية استقراء شاملة للنصوص فى قضية التكليف نلاحظ أن تكليف الفرد مرتبط بمسئوليات الفرد فى المحيط الاجتماعى ، ومرتبط بطاقته ومرتبط بالظروف التى يواجهها ، ومرتبط بالظروف التى تواجهها أمته • فمن كان متزوجا كان تكليفه أوسع من تكليف العزب • ومن كان وزيرا كان تكليفه من ناحية أوسع من تكليف الرجل العادى • ومن ملك كان تكليفه من ناحية أوسع من تكليف من لا يملك ، ومن أعطى عقلا واسعا كان تكليفه أوسع من تكليف من طاقته العقلية محدودة ، ومن رأى رجلا يغرق وهو قادر على انقاذه فواجب عليه الانقاذ ، واذا هوجمت الأمة فعلى كل فرد قادر أن يقاتل •

* * *

ومن عملية استقراء شاملة للنصوص نستخرج قواعد ونعرف مبادىء : نعرف أن مصلحة العباد مرادة للشارع ، وأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح • ونعرف أن الأعراف الصالحة تعتمدها الشريعة ، ونعرف أن الضرر يزال شرعا • ونعرف أن للضرورات أحكامها ، ولكن كثيرا ما يحدث أن الكثيرين لا يعرفون أن يضعوا هذه الأمور مواضعها •

* * *

والمسلمون بمجموعهم والمسلمون فى كل قطر من أقطارهم يواجهون كل يوم حالات كثيرة • وتطرأ عليهم طوارىء متعددة • وكل ذلك يقتضى منهم معرفة حكم الله فيما هم فيه على حسب التكليف الالهى •

* * *

والقرآن فى الأصل منه المحكم ومنه المتشابه • ولقد قال ابن عباس فيما يرويه عنه ابن جرير فى تفسيره : « التفسير على أربعة أوجه ، وجه تعرفه العرب من كلامها • وتفسير لا يعذر أحد بجهالته • وتفسير تعرفه العلماء • وتفسير لا يعلمه الا الله » فاذا كان القرآن هذا شأنه واذا كانت السنة هذا شأنها ، واذا كان التكليف هذا شأنه فان ذلك اقتضى وجود منصب الاجتهاد ومنصب الافتاء •

فلابد من وجود القادر على الاجتهاد الذى من شروطه امتلاك أدوات الفهم من علوم لغة ، وكمال عقل ، والذى من شروطه استشرافه الشامل للنصوص ، والقدرة الصحيحة على فهمها ، والذى من شروطه أن يعرف حكم الحوادث ، والمسائل غير المتناهية على ضوء القواعد التى وضعتها النصوص لاستخراج المسائل التى لم يصرح بحكمها مراعيا فى ذلك مقاصد الشريعة ونصوصها • ولقد سلمت الأمة خلال عصورها للكثيرين بأنهم وصلوا الى رتبة الاجتهاد • وخصت منهم بالاعتماد أربعة : أبا حنيفة والشافعى وأحمد ومالكا فى قضايا الفقه العملى • وذلك لأسباب منها : أن كلا من هؤلاء ملك ناصية الاجتهاد ، وأن اجتهاده كان مبنيا على قواعد منضبطة وأنه قد وجدت له مدرسة تتبنى اتجاهه وتكمله وتفتى على ضوئه ، وأن آراءه قد نقلت لنا نقلا صحيحا عن عدول وضمن شروط •

وسلمت الأمة فى قضايا العقائد لاثنين : أبو الحسن الأشعرى ، وأبو منصور الماتريدى • لأسباب منها :

الثقة بالاستشراف على مجموع النصوص والفهم النظرى لها • والرد على الذين ساروا وراء المتشابه من الفرق الاسلامية ، وكل ذلك على ضوء أصول منضبطة وقواعد محكمة فى الفهم والتأصيل والتقعيد •

وهكذا وجدت مذاهب فى الفقه والاعتقاد ، ووجد العلم الذى يضبط الاجتهاد والفتوى وهو علم أصول الفقه • ولعلنا أدركنا بهذه

النجولة محل الحكم العقلى والعـادى فى دين الله • وعرفنا محل علوم اللغة فى فهم دين الله • وعرفنا أن دين الله تفصله نصوص الكتاب والسنة وعرفنا أنه ينبثق من الكتاب والسنة أحكام الشرع فى أفعال المكلفين على ضوء قواعد منضبطة استخرجها علم أصول الفقه الذى به تتجلى روعة النصوص وتنصهر فيه العلوم • فهو العلم الذى يجعل اللغة والمنطق ينصهران فى علم واحد يخدم الحكم الشرعى • وهو العلم الذى يدل على طريق الوصول الى الحكم الشرعى الصحيح ومن ثم كان العلم الذى لا يفلح فيه الا من اجتمعت له العلوم واستكمل كمال العقل •

يقول الغزالى : « وأشرف العلوم ما ازدوج فيه الرأى ، والشرع ، وعلم أصول الفقه من هذا القبيل فانه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل ، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ولا هو مبنى على محض التقليد الذى لا يشـهد له العقل بالتأييد والتسديد » •

* * *